معجم اللسان الضادي

أمنية تتحقق

لابراهيم ابراهيم يوسف

من أوابد ما تكلم به الأقدمون : « الإنسان حيوان ناطق » . ومعنى ناطق إذا قصرناه على المعنى اللغوي الصرف ، منكتم بصوت وحروف تُعرف بها المعاني ، كما يقول الفيروز ابادي. ولو شئنا تفسير تلك الأبدة وانتظر فيها ترى اليه من معنى فقلنا : إن المقياس الصادق لإنسانية كل فرد هو قدر معرفته للغته ، كما أن مبلغ حبه بها يتساوى بمقدار حبه لأمته . وإذا حب اللغة متأصل في النفوس ما لم تكن مريضة . ونحن نعلم أن كان للعرب قوة ولا تزال مع مرض . ومن لزوميات القوة الحب . وقد أحب العرب لغتهم حبًا جمًا . ويفسر أبو منصور الثعالبي حب اللغة بقوله : « من أحب العربية عُني بها وثابر عليها وصرف همته اليها » (١) . وها نحن أولاء نرى من تزاحم عشاق اللغة في الأزمنة السالفة — الأمر الذي نفتقط به أيّ افتقاط — لجعل أبو منصور الثعالبي يحمد الله أن « نبض لعربية حفظة وخزنة من خواص الناس وأعيان الفضل وأعلم الأرض فنسوا في خدمتها الشهوات وجابوا الفلوات وناموا لانتباهها الدفاتر وصابروا القناطر و لمحابر وكدّوا في حصر لغاتها طباعهم وأسهروا في تقييد شواردها أجفانهم وأجالوا في نظم قلائدها أفكارهم وأنفقوا في تخليد كتبها أعمارهم » (٢)

وبفضل تلك هؤلاء الأفذاذ وبركة جهودهم المثمرة — وقد أستبان لنا ذلك اليوم بعد أن ثبّته الفحص واستقرّ عليه الرأي — « لا يوجد شعب آخر ، إذا استثنينا الصين ، يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته وبشعوره المبكر بحاجته الى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب » (٣)

---

(١) و (٢) من كتابه فقه اللغة وسر العربية ، طبع المدارس الملكية بالقاهرة

(٣) من مقدمة الاستاذ الدكتور أ . ليتمر في معجمه اللغوي التاريخي ، وهو دون النشر

وإذا كان الأمر كذلك فلأبناء العروبة عذر أن يعتقدوا اعتقاداً راسخاً أن « العربية خير اللغات والألسن » . ثم ليس عليهم من حرج حين يتفاخرون بذلك في عصور أتيحت من أعلام اللغويين أئمة عنوا بتصنيف المعاجم وكتب مفردات اللغة أمثال الخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) وأبي عمرو الشيباني (المتوفى سنة ٢٠٥ هـ) وأبي عبيد (المتوفى سنة ٢٢٣ هـ) وابن دريد (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) والفارابي (المتوفى ٣٥٠ هـ) والقالي (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ) والأزهري (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) والصاحب بن عبّاد (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) وابن فارس (المتوفى ٣٩٥ هـ) والجوهري (المتوفى سنة ٣٩٧ هـ) والخوارزمي (المتوفى سنة ٤٠١ هـ) وابن الدهّان (المتوفى سنة ٤٣٦ هـ) وابن سيده (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) والزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) والمطرّزي (المتوفى سنة ٦١٠ هـ) والصّغاني (المتوفى سنة ٦٥٠ هـ) وابن منظور (المتوفى سنة ٧١١ هـ) والفيّومي (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ) والفيروزابادي (المتوفى سنة ٨١٦ هـ) رضوان الله عليهم جميعاً (٤) . ولكن مرحان ما انتابت العربية من بعد هؤلاء الأعلام سنون عجاف عدّتْ حتى اليوم ثلاث وأربعين وخمسمائة سنة . ونحن نستعين الماضي ونفد الحاضر نرى أمامنا بقية تلك الحقبة المديدة من الدهر عسى أن يعثر أبناء أحفادنا في لغاتهم وآدابهم . وما إن انقضت تلك السنون القساء حتى أحدثنا رجعة من هول ما حالت أحوال ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى (٥) ، وغيّر الدخيل الأصيل أو كاد ، وحرم غير الفصيح الفصيح إلا قليلا . فنسلك الآن إلا ما عصم ربك وتجهّم أقوام للعربية سراً وعلانية ، بل وشنّ في الناس من سرقت له نفسه بث دعوى أن العربية لغة دخيلة على البلاد لا يعرف أهلها من الألسن وغيرها .

***

هذا ما آلت إليه اللغة وشر دعوى عرضها القضاء لدولي من الدول العربية من شهرتها أن معروضا تمحّض صدقاً لا كذباً عن نيته صارحة . وقد قالت إن لا يلام سعة لكرية ما لم تسد

(٤) كان في الوسع أن تقرر هؤلاء الجماعة بأمثالهم من علماء اللغة أمثال يعقوب والمبرد وابن حنيفة والفراء والأصمعي وابن زيد وأبي حاتم والمبرد وابن السكيت والمفضل وابن الأعرابي والسجستاني وابن قتيبة وأبي بكر الأنباري وأبي علي القالي وابن سعيد الصيرفي وأبي الفتح بن جني وأبي الحسن علي الرماني وأبي بكر محمد السري وغيرهم . ولكن رجأنا ذلك إلى بحث خاص يتناول أعمار اللغويين وآثارهم . وقد ضربنا صفحاً عن الزبيدي لأن جل تاج عروسه يرتد إلى لسان العرب لابن منظور والمحكم

(٥) من كتاب الصاحب لابن فارس

بإغراض اللغة ، وأننا ما زلنا بعيدين عن أن توصف نفوسنا بخصب إنتاجها ، إنتاجاً صحيحاً بأن لا نوائم نعلم او دين بغير لغة . وعندما ترسخ هذه العقيدة ويثبت هذا الايمان نكون قد خطونا خطوة أخيرة في إغراض العربية

***

أما خطوتنا الثانية فلن نوفق فيها توفيقاً يكمل لنا إغراض العربية على وجه مرضٍ ما لم نجنّد جلّ علماء اللغة من عرب ومستعربين ومستشرقين ، كما نجنّد أعيان المؤدّبين والمتفقّهين في مختلف العلوم والفنون عرباً كانوا او مستعربين ، ليعملوا جميعاً متآزرين في فرقتين أساسيتين لها هدف واحد هو وضع معجم لغة العربية الفصحى ملائماً للتطور العلمي في العصر الحاضر ، وهنا ينشأ السؤال : كيف يكون هذا المعجم ؟ « الجواب : يجب ان يشتمل المعجم على كل كلمة بلا استثناء وجدت في اللغة .... وان يوضح هذا المعجم التطوّر التاريخي لمعنى الكلمة ... ، وان يبحث في اصل الكلمة ونسبتها ... ، وان يورد تعريف الافعال والأسماء وغيرها ... ، ولن يحقق معنى الكلمة ايّ معانيها ورتّب هذه المعاني على حسب علاقتها التاريخية والعقلية ... ، وأن يوضح جميع العلاقات اللغوية التي ترتبط الكلمة بأخرى ... ، وان يبيّن علاقات الكلمة التي استعمر منها أم لازمة لها دائماً ... ، وان يحدد المحيط اللغوي الذي تستعمل فيه الكلمة او التعبير او التركيب استعمالاً عاماً او خاصاً ... » (٦) ومعنى ذلك « ان تعرض الكلمة على حسب وجهات النظر السبع التالية : التاريخية والاشتقاقية والتصريفية والتعبيرية والنحوية والبيانية والأسلوبية » (٧) وتشاوري العمل يجب ان يكون غرض الفرقتين المشار اليهما الاشتراك في وضع معجم لغوي تاريخي . وتصرف الفرقة الأولى منهما همّتها الى تصحيح وتتبع جميع ما سيتناوله بحث الفرقة الثانية من كتب وإعادة طبعها طبعات علمية متقنة . كذلك طبع أهم المخطوطات بعد دراستها دراسة وافية — ولنا في ذلك بعض آثار المستشرقين أسوة حسنة . وللأعضاء هذه الفرقة حق

***

أما الفرقة الثانية فيحسن أن تؤلف من شعبتين ، كلّ شعبة مستقلة في عملها عن الأخرى وتتكوّن الأولى منها ممن تفقه في علوم اللغة ، ودرس العربية الفصحى لعصرها الذهبي — ويبتدىء من أيام الجاهلية الأولى وينتهي بنهاية القرن الثاني الهجري — ، وحذق اللغات السامية الأخرى ، وكذا الفارسية والتركية واليونانية واللاطينية واللغات الأوربية الواسعة الانتشار . وتصرف همة هؤلاء جميعاً الى شد أزر العلامة الدكتور أ . فيشر في تصنيف معجمه

(٦) و(٧) من مقدمة الاستاذ الدكتور أ . فيشر في معجمه اللغوي التاريخي ، وهو وحده المطبوع

التعري التاريخي . وكان مجمع فؤاد الأول للغة العربية قد وضع له أسباب العمل منذ نشأته سنة ١٩٣٧ م . ومتى سارت هذه الهمة في عملها فسوف يتسنى للدكتور أ . فيشر ، متى عاد الينا في المجمع إن شاء الله ، ان يتبع أضعاف ما انتج ، ويتم لنا معجمه الفريد في زمن أقل مما قدر له . ولعل المبادرة بطبع القسم الأول من هذا المعجم واظهاره للناس أشحذ لهم المقوين والمتأدبين وأدعى لتظرهم بالمساعدة في هذا العمل الجليل ، خاصة اذا وقفوا على أسلوبه العلمي الحديث الذي اتجه في تأليف هذا المعجم . وهو ، على عكس ما تصوره البعض ليس سرًّا من الأسرار . فالمعجم يتناول بقدر الامكان بحث تاريخ كل لفظة التي جاءت في الآداب العربية مبتدأ بالكتابة المنقوشة المعروفة لنا بالعربية من القرن الرابع الميلادي ومنتهيًا بنهاية القرن الثالث الهجري أي منتهى ما وصلت اليه اللغة العربية من الكمال . أعني أنه يتناول الكلمات الموجودة في القرآن والحديث والشعر والأمثال والمؤلفات التاريخية والجغرافية وكتب الأدب والكتابات المنقوشة والمخطوطات غير المطبوعة . وقد بُني المعجم على المتون التي لها دخل بهذا . ويتبيَّن من بيان وجوهها مبنى الكلمة ، مكتوبة من اليمنة ، كذلك يجب ان لا يغرب عن بال هذا . ويوضح هذا بما جرى عليه المعجم التاريخي . ومن هذا وذاك يتضح لنا الى حد كبير أصول العمل . وما سبق هذا بحال تحديد أسلوب العمل في معجم فيشر ولا وسائله . كذلك ليس في هذا بيان عن المصادر التي تكشف طبيعة العمل ودقائقه . وقد أردت ذكر بعض ما سبق ، خاصة بعد ما ألف المعاجم ، حتى لا يشعر ان الاذهان أو هذا العمل يمر مرًّا سريعًا في مقدور اليد الحصول على تلك المادة اللغوية من لغة الكتابة ، لغة الكلاسيكية ، منذ الى الأوائل من ناطقوا حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، (٩) فقد ذهبت على هذه المواد كلها لصالح المعجم العربية الكبيرة) ، و (٢) (إن الكثير من كتب الأدب ، ودواوين الشعر خاصة ، ما كان منها للمتقدمين على الأخص به أغلاط من نسخة الى نسخة ، حتى ان الحكم أن الصحيح وتصويب ذلك الخطأ في المعاجم لفريد ، وصنعها المستشرقون يذهبون فيه الى نحو من أغلاط) (١٠) (وقد وضعت طائفة من المتكلمين في معاني الألفاظ والتنبيه عليها وتصحيحها) ، و (٣) (أن المقومين المتقدمين قد تنازعت آراؤهم في الحكم على ما هو الفصيح من الكلام) (١١) (وقد وردت آراؤهم هذه في مختلف الكتب التي وصلت

---

(٨) و (٩) و (١٠) و (١١) من مقدمة الاستاذ الدكتور أ . فيشر في معجمه اللغوي التاريخي ، وهو رهن الطبع

الينا عنهم) وهذه الصعوبات كما نراها — وهي بعض من كل — كفيلة بأن تعوق العمل في المعجم الى حد يقارب اليأس من التقدم فيه، ورغم هذا كله فقد قطع الاستاذ الدكتور أ. فيشر شوطاً كبيراً في عمله لاخراج معجمه كما يشتهيه كل غيور على اللغة . ومما يزيد في قدر هذا المعجم أن وضع لكل كلمة مقابلها الانكليزي والفرنسي .

***

أما الخطة الثانية فيجب أن تشكل على غرار الخطة الأولى لتقوم بوضع معجم تاريخي كبير للغة العربية في جميع عصورها . وهو ما نرضه المرسوم الملكي على مجمع فؤاد الأول للغة العربية كغرض من أغراض انشائه . ولا شك أن هذه الخطة ستنتهج ان شاء الله نفس الأسلوب العلمي الحديث الذي جرى عليه الأستاذ الدكتور أ. فيشر في معجمه. ولا شك انه عمل خطير . ولكن ما كان تأليف معجم لغوي تاريخي بالأمر الهين ، بل لي أن أقول بأنه من أشق الأعمال وأضناها وأثقلها جهداً وبركة . وقد عرف ذلك الاقدمون . ويقول في ذلك الافرنج ان الكتب المفصلة الموسوعة نقمة على أصحابها ! ولذلك نحى علماء اللغة جيلاً بعد جيل مع أن يؤلفوا معجماً يلائم روح العصر الذي عاشوا فيه . ولما كانت المعاجم التاريخية — وهي واحق معاجم قومية — تستنفد السنين الطوال والجهود الجبارة في وضعها فقد استعان كل من الانكليز والفرنسيين والألمان والطليان بثلاث من العلماء المتفرغين في وضع معاجمهم القومية. وتكفي هنا الاشارة الى معجم اكسفورد للغة الانكليزية الذي بدىء به في سنة ١٨٥٧ وقضى في طبعه من سنة ١٨٨٤ الى سنة ١٩٢٤ وقد تعاون في وضعه ثلاث من العلماء يؤيدهم حينئذ من المتطوعين مائتين وثلاثين . واذا كان هذا حال الغربيين فالأجدر بأبناء العروبة ، وقد ترعرع سهم الكريم والشخوة وحب اللغة ، ان يبادروا بالتطوع في أعمال معجمنا القومي ليساهموا بقسط يليق بالشجرة التي نرتجيها ويرتجيها كل منا

* * *

ولي أخيراً ان أشير أثناء هذا الحديث سمداء وأي سمداء ، اذ سيكون لهم شرف الانتساب الى عصر جدَّ فيه الجد لإتمام المعجم اللغوي التاريخي للدكتور أ. فيشر وابنه بوضع تصميم العمل في المعجم اللغوي التاريخي الكبير والشروع في تأليفه . ومتى بلغنا النهاية من هذين المعجمين نكون قد علمنا من أمر لغتنا ما نحتاج الى علمه في زماننا . والله الميسر والمعين